بحث محكم | الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 02 مارس 2020

تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر
نقد التطرف والتعصب بالتسامح الديني

حسام كصّاي
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر

نقد التطرف والتعصب بالتسامح الديني[1]

1- نشر هذا البحث في كتاب "التسامح الديني في الثقافة العربية: دراسة نقدية"، الجزء الأول، إشراف ناجية الوريمي، مؤمنون بلا حدود.

ملخص:

تتمحور إشكالية البحث المركزية في أنّ أزمة الخطاب الديني المعاصر اليوم ناجمة عن بروز الظاهرة الدينية القادمة على صهوة الأصولية الإسلامية الرّاديكالية، والقائمة على ثقافة التعصب الرافض لقيم التسامح والأخوة والمواطنة السياسية بين أطياف المجتمع العربي والإسلامي المكون من فسيفساء التنوع العرقي والديني والثقافي، ومن ثم نحن تشكيل أزمة ثقافة عربية وإسلامية حادة؛ أي إن إشكالية الدراسة هي كيف أصبح التعصب والتطرّف والعنف منبراً للخطاب الديني المعاصر؛ وكيف يمكن نقدها وعلاجها بالوسائل الفكرية المتاحة؟

مقدمة:

تعاظم دور الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني المعاصر، وإلى ضرورة ترشيده في البيئات العربية والإسلامية المعاصرة، استجابة للرهانات اللازمة لمواجهة تفاقم الأمية وتنامي أزمة الثقافة السياسية والدينية بوجه خاص؛ إضافة إلى تعاظم موجة التدين احتجاجاً على المادية التي آل إليها أمر الحضارات، وبروز ثقافة التعصب والميول نحو مزيد من التشدد في تطبيق العبادات، وكأنّنا نتحدّث عن انحراف ديني وتشويه للنص القرآني من خلال تفسيرات قديمة سعت إلى جمود الفكر الديني، وحجر العقل العربي ورميه في خانة العُزلة؛ أي إننا نتحدث هنا عن أزمة خطاب ديني.

وأبرز مظاهر الأزمة في الخطاب الديني المعاصر تحوّلُ الدين إلى إيديولوجيا حزبية، وإلى سياسة رامية إلى الأطماع الدنيوية؛ وتحول الدين إلى شعبي ضيق؛ ومن ثم أصبح التطرّف الديني «**خيار أمة**»، وأصبح العنف سبيلاً إلى تحقيق غايات الدين نتيجة حزمة التعصب وقصور الرؤية. ومن ثم البحث المُقدم يحاول الإجابة عن بعض أسئلة تجديد الخطاب الديني من خلال محاور فرعية عدة لتحقيق هدف الدراسة لكن ليس قبل التعريف بإشكالية البحث أو الدراسة.

تتمحور الإشكالية المركزية في أنّ أزمة الخطاب الديني المعاصر اليوم ناجمة عن بروز الظاهرة الدينية القادمة على صهوة الأصولية الإسلامية الرّاديكالية، والقائمة على ثقافة التعصب الرافض لقيم التسامح والأخوة والمواطنة السياسية بين أطياف المجتمع العربي والإسلامي المكون من فسيفساء التنوع العرقي والديني والثقافي، ومن ثم نحن تشكيل أزمة ثقافة عربية وإسلامية حادة؛ أي إن إشكالية الدراسة هي كيف أصبح التعصب والتطرّف والعنف منبراً للخطاب الديني المعاصر؛ وكيف يمكن نقدها وعلاجها بالوسائل الفكرية المتاحة؟

تتمثل المحاور في ما يأتي: **المحور الأول: التعريف بماهية الخطاب الديني المعاصر**، مع توضيح بعض المفاهيم ذات الصلة بالموضوع كإطار مفاهيمي مثل تعريف: الفكر الديني، التطرف الديني، العنف، التعصب، الأصولية، وغيرها. أما **المحور الثاني فسيتناول تشريح بعض أسباب التطرف الديني**. أما **المحور الثالث فسيشتمل على كيفية نشوء ثقافة التعصب في البيئة العربية**. أما **المحور الرابع فمخصص لدور التكفير والتطرف في صناعة خطاب ديني معاصر**؛ وسيكون **المحور الخامس مخصّصاً لطرق معالجة الخطاب الديني بثقافة التسامح والواقع العملي**.

فيما تهدف دراستنا إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- محاولة صناعة خطاب ديني معاصر يتجاوز ثقافة التعصب والتطرف الديني.

- بث ثقافة التسامح وروح المواطنة ونبذ الكراهية والعنف.

- التأكيد على ثقافة عربية تسامحية اعتدالية نابعة من وسطية الإسلام.

- إنقاذ الإسلام من مأزق الأصولية الراديكالية بما هي عنف وتعصب وتبرئة ساحته منها.

تنطلق دراستنا هذه من واقع الأمة بكل تفاصيلها ورهاناتها والنوازل التي ألمت بها، وأعاقت مسيرة مشروع النهضة العربية الإسلامية تساوقاً مع سؤال النهضة: لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون المطروح مذ أكثر من قرن من الزمن، ولم نصل إلى إجابة وافية ومقنعة، وهذا السؤال هو سؤال الدراسة، سؤال التجديد، سؤال الخطاب الديني، سؤال الإصلاح، سؤال المعرفة العلمية، سؤال التنمية، وهو السؤال الذي اختلفت حوله الآراء، وحول تقديمه، وحول الإجابة عنه، ومن ثم انتهى الأمر إلى إشكالية، وإشكالية متفاقمة، تأخذ مسالك تصل إلى درجة الاقتتال الطائفي والنزاع على السلطة باسم الدين والرب والسماء.

لا يتسنى لنا هنا إلا طرح المحاولة المتواضعة هذه لغرض تفكيك هذا الخطاب، ومحاولة الإجابة عن نزر يسير من سؤال النهضة، أو على الأقل ترقية الإجابات لجيل العرب التقدمي والنابض بالحياة من أجل استعادة قوّة الإسلام وحضارته المُستلبة بفعل عوامل الداخل والخارج بعد ربط الإسلام بعجلة الإرهاب، وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م) وتفجير برجي التجارة العالمية (أو ما سمي بأحداث غزوة مانهاتن)، التي أدت إلى ارتفاع وتيرة رمي الإسلام بالعنف[1]، وأنه دين غير متسامح عدواني وغير متصالح مع الآخر، وأنهُ دين رجعي وبدوي يدعو إلى القتل بناءً على تقديرات تقارير أمنية، وليس تقييمات منهجية أو صادرة من مراكز بحثية تعليمية أو أكاديمية.

من أجل هذا كله جاءت هذه القراءة البحثية لموضوع التسامح في الثقافة العربية الإسلامية بخمسة محاور على النحو الآتي:

1- النابلسي، شاكر، تهافت الأصولية: نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المعاش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2009م، ص163.

المحور الأول: ماهية الخطاب الديني المعاصر:

تنطلق دراستنا من التعريف بماهية الخطاب الديني المعاصر، ومن الإطلالة على أبرز المفاهيم ذات الصلة بموضوعة التسامح والتطرف، مثل تعريف: الفكر الديني، التطرف الديني، العنف، التعصب، الأصولية، وغيرها...

- **الفكر الديني:** يُعرف الفكر الديني بأنهُ الأسلوب التاريخي لفهم مبادئ الدين التي بشّر بها النبي وتطبيقها[2]، فيما تتمحور صور الفكر الديني في قضايا منها (الألوهية، الرسالة، المُغيبات، رموز الأساطير، وما شابه ذلك).

- **العنف:** اللفظ عربي، والدلالة حديثة أفرنجية. ويعني الحيوية[3]، وتعني ممارسة أفعال عدوانية ودموية، وينطوي على الدعوة إلى التعبير عن الحقوق بالاستخدام الأمثل للسلاح والدم، وهو طريق مُعبد بالإرهاب والقتل واستباحة الحرمات، بمعنى أنّ العنف هو غاية المتطرف ووسيلة الإرهابي، وهدف المهزومين أو الخاسرين اجتماعياً وسياسياً على الأقل؛ في حين يعرفه الفيلسوف الفرنسي أندري لالاند بأنه إفراط غير مشروع في استخدام القوة[4]، ومن ثم العنف هو الاستخدام غير الشرعي للقوة أو التهديد باستخدامها لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين[5].

- **الأصولية:** مصطلح الأصولية هو لفظة إنجيلية بمعنى أساس. ويوصف الأصوليون بأنهم أولئك الذين يناضلون بإخلاص من أجل الأصول[6]، أي هو تعبير كنسي أوربي نشأ وتطور في بيئة الفكر المسيحي والمحيط (الكنسي) البابوي تحديداً، وهو ما أثار جدلاً حيال التسمية التي أُريد إلصاقها بظاهرة الإسلام السياسي. وتعرف الأصولية في قاموس (**المورد**) على أنها <العصمة> ببروتستانتيتها بينما يعرفها قاموس (**أكسفورد**) على أنها «حركة أرثوذكسية تقليدية تقوم على مفهوم مضاد لليبرالية»[7].

2- العشماوي، محمد سعيد، أصول الشريعة، دار الانتشار العربي، بيروت، ط5، 2004م، ص73.

3- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2016م، ص492.

4- نصار، عصمت، «فلسفة العنف: اضطراب النسق الجامع بين الشر والخير»، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد 291، السنة 2014م، ص24.

5- Sandra J. Ball - Rokeach, «The Legitimation of Violence», in: James F. short (Jr and Marvin E. Wolfgang, eds Collective Violence (New york: Aldine, 1977), p. 101.

6- وهبة، مراد، مرجع سابق، ص77.

7- The Shorter Oxford English Dictionary (Oxford: Claredon Press, 1955), p. 818.

الخطاب الإسلامي المعاصر:

بات مفهوم الخطاب من المفاهيم الرئيسة الأكثر تناولاً وإشاعة في العلوم الإنسانية[8]، فدلالة الثلاثي المفاهيمي (التجديد، الخطاب، الدين) تتعلق بوجوب إعادة النظر ليس في الدوال اللفظية وإنما في طبيعة العلاقة بينهما[9]. وللديني خصوصية مميزة في الفضاء العربي والإسلامي لكونه الفضاء الممتد الذي تبلور فيه الخطاب على مدى تاريخي طويل، واكتسب سلطته الخاصة التي راحت تترسخ وراء قداسة «الديني» وتعاليه[10] بشكل «تراتبية إيديولوجية» محضة.

فيما كان مفهوم الخطاب الديني مجرد ابتداع لمُحدث، لكونه أساساً مصطلحاً حديثاً انصرف إلى الدين الإسلامي (بحكم أغلبيته السكانية في المنطقة) فلم يعرف هذا المصطلح من قبل في ثقافة المسلمين كنواة مجتمع؛ أي إنه مصطلح ليس له أيّ وضع شرعي في الإسلام، كالمصطلحات الشرعية مثل الجهاد، الخلافة، وإنما هو مصطلح جديد[11] وظاهر للحداثة وناتج عن العولمة الدينية أو العولمة السياسية بكل خصائصها المتاحة.

رافقت سماتٌ خاصة متصلبة الخطاب الديني المعاصر، كالجمود الفكري، والتعصب الديني، ومحاولات التمسك بحرفية النصوص الدينية، والاستعلاء والغرور الديني، والغلاظة والتشدد في التصريحات والبيانات الكلامية، فأصبح الخطاب حزبيّاً أكثر منه دينيّاً، وشعبياً لا نخبويّاً، ولا يصلح للنخبة السياسية الحاكمة أو المُعارضة، إضافة إلى كونه لا يُخاطب إلا أبناء فئة معينة، حزب أو طائفة، وما زال يفتقد الجماهيرية والشعبية، علاوة على كونه خطاباً طائفياً يتناغم مع الحس الطائفي فيما يُطيح بالوطنية والمواطنة عابراً الوطن والحدود السياسية خياراً إسلامويّاً. إنّه خطاب متقوقع على الطائفة والمذهب، وعابر للقيم الوطنية ومتجاوز لها نحو المذهبية والشعبوية، ويتّسم بالفنتازيا والوهم، وهو أبعد عن الحقيقة والواقع، فأكثر توجهاته تبدو وكأنها لا تخاطب جيل القرن الحادي والعشرين. وبعض تصريحات الخطباء تجعلك تتصور نفسك في قلب معركة بدر، أو أنك تعيش القرن الثاني الهجري بأدق تفاصيله فيما حقيقتهم وواقعهم مفجع إلى درجة أنه يصعب حصر الحديث عنه هنا. كما يؤاخذ الخطاب الديني على تبنيه نزعة إيديولوجية قائمة على التضاد (أو جمع الأضداد) الأبيض والأسود، المتنور والمتخلف، العقلاني والخرافي[12]، مع غياب «وحدة الخطاب الإسلامي»؛ أي عدم وحدوية الخطاب الديني، فالخطاب الإخواني مُختلف عن الخطاب السلفي،

8- مبروك، علي، في لاهوت الاستبداد الديني والفريضة الغائبة في خطاب التجديد الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2014م، ص131.

9- المرجع نفسه، ص126.

10- المرجع نفسه، ص134.

11- حسن، فتحي رمضان، تجديد الفكر الديني بين النظرية والتطبيق، وزارة الأوقاف، القاهرة، (سلسلة قضايا إسلامية)، ط1، ص76.

12- الربيعو، تركي علي، الحركات الإسلامية من منظور الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006م، ص130.

والأخير عن الصوفي، ناهيك عن الاختلافات المناطقية، فالخطاب الإخواني المغاربي مختلف عن الخطاب الإخواني العراقي أو التركي، ومن ثم هو خطاب متذبذب، مُشتت لا توجد مرجعية دينية واحدة وثابتة، وذو سلوك جُزئي لا كلي، ظرفي ومتغير غير ثابت، متباين، وغير محدد أو موحد. وبالأخير هو خطاب تهديد ووعيد، وهذا أخطر ما يكون عليه الخطاب الديني تحديداً، لأنّه يحول التهديد والوعيد إلى قتال مُقدّس تحت عنوان: الجهاد والفتوى الدينية.

ويمكن القول: إنّ تلك السمات، التي طبعت الخطاب الدينيّ المعاصر، وضعت العراقيل أمام التجديد الديني، الذي اكتنفتهُ هو الآخر ثلاث معضلات كبرى هي[13]:

أ- معضلة الجمود (ممثّلة في الذين أحكموا غلق أبواب الاجتهاد).

ب- معضلة الخوف من الإسلام أو ما يعرف بالإسلاموفوبيا.

ج- معضلة الخوف من التجديد أو التجاوز فيه (بينما التجديد بحاجة إلى الشجاعة والجرأة).

ومن ثم إنّ الصورة الغالبة على الخطاب الديني المعاصر اليوم تحتاج وبشدة إلى النقد والمراجعة، وذلك ليس قبل أن نتناول أبرز عناصر هذا النوع من الخطاب؛ منها[14]: الترهيب والتخويف، والميل إلى التشديد على الناس وتضييق الخناق عليهم، وكذلك الغفلة عن مقاصد الشريعة والوقوف عند ظاهر النصوص وحروفها، ثم الغفلة عن ترتيب الأولويّات ومراتب الواجبات الدينية، والغفلة عن دور العقل وأهمية العلم في بناء التصور الإسلامي، ومداومة الحديث عن الماضي والذهول عن الحاضر والخوف من المستقبل، ومن الغير.

لكنّ هذا لا يعني أنّنا أُسارى تلك السمات والعناصر أو خاضعون لما يترتّب عليها، أو أنها عناصر جعلت مشروعية تجديد الخطاب الديني تحيد عن الطريق؛ إذ ما زالت مشروعية الخطاب قائمة بذاتها مطلباً أساسياً في مقدمة الأولويّات دون تراجع، فما هي تلك المشروعيّة؟

13- مبروك، محمد مختار جمعة، نحو تجديد الفكر الديني: مقالات في الدين والحياة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 2015م، ص20-21.

14- أبو المجد، أحمد كمال، مدخل إلى إصلاح الخطاب الديني المعاصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 2015م، ص16-50.

مشروعية الخطاب الديني:

في ضوء ما تقدم بوصفه سياقاً معرفياً، آن لنا الوقوف هنا على حدود المشروعية الأساسية للحديث عن موضوعة ضرورات تجديد الخطاب الديني بوصفها مقدمات عملية لربط العوائق والعراقيل بالمعالجات والحلول، وهذا هو مغزى فكرتنا الأساس في الحديث عن آليات تجديد الخطاب الديني بالتسامح الديني نفسه.

بينما هناك محددات تناولت مشروعية تجديد الخطاب الديني، ويمكن تصويرها بثلاث دوائر أساسية، على النحو الآتي[15]:

1- نشر العلم وإظهار الشرائع على أتم وجه.

2- إزالة كل ما علق بالدين مما ليس منه من أخطاء أو بدع أو تصورات وقعت في سلوك بعض الناس (إزالة الترهلات والتراكمات والمخلفات).

3- التمسك بما ورد في الشريعة والتقيد بها والعمل بموجبها، والطَّفْر فوق حواجز الجهل والخرافة.

ومن ثم مجمل الخطاب الديني اليوم هو عملية شائكة ومعقدة ارتبطت بالسياسة من نافذة الدين دون الاعتراف بتلك السياسة، ضمناً أو علناً، لكنها مورست في الخفاء بحرفية تامة، وحضور الديني كان مجرد قناع للخطاب يتحوّل به من كونه «ديناً» ليصبح مجرد «إيديولوجيا»، ومن ثم تحول الدين إلى ساحات موت ومبارزة يتقاتل فوقها الفرقاء المتأدلجون[16]، وهذه الأدلجة كانت مفتاحاً لباب العنف الإسلامي أو الإرهاب المرتبط بالإسلام ليكون مدخلاً آمناً للتوغل في حقل الألغام الدينية، بالوقت الذي تخلط الصورة وتزيد من ضبابية المشهد في توليف التجديد بالتطرف الذي يزيد من صعوبة فك الارتباط بين الديني والسياسي، وبين الغاية والوسيلة، وبين الروحي والزمني، ومن ثم خفض حظوظ تجديد الخطاب الديني المعاصر بصورتهِ الشائهة هذه.

15- الشريف، محمد بن شاكر، تجديد الخطاب الديني: بين التأصيل والتحريف، مكتبة الملك فهد، الرياض، ط1، 2004م، ص29.

16- مبروك، علي، في لاهوت الاستبداد الديني، مرجع سابق، ص129.

المحور الثاني: أسباب التطرف الديني:

ثمة أسباب متنوعة ومتباينة من حيث الزمان والمكان دعت إلى التطرّف بشتى صنوفه، كانت لها المؤثرات الواضحة على صياغة التطرف بشكل حرفي، وهو ما ذهب إليه يوسف القرضاوي بالقول: إن «الأسباب متشابكة ومتداخلة»[17]. ولتناول موضوعة التسامح في الثقافة العربية الإسلامية لا بد من التعريج قليلاً على قضايا مناقضة للتسامح الديني في الإسلام مما تسببت في أزمتهِ، ونقصد بها أسباب التطرف المرتبط بالإسلام (زوراً أو حقيقة واقعة) وهذا ما سنتناوله هنا مقدماتٍ من أجل الفصل بين الخطاب الديني والدين. فكان تمرد النظم السياسية الحاكمة على المحكومين، وتجاهل معاناتهم وإعانتهم لتجاوز تحدياتهم المعيشية، الأمر الذي جعل الكثيرين يفكرون في البديل، ولما غاب البديل بالطرق السلمية بدأ البحث عنه بالطرق الثورية والراديكالية، كان من بين أبرز تلك الأسباب التي رقت موضوعة التطرّف، وتأتي الأوضاع الاقتصادية (المعيشية) التي يمر بها المواطن العربي، فالفقر والبؤس يعدان محفّزين قويّيْن على التطرف والتشدد في المجتمع الإسلامي، وخصوصاً في أوساط الشباب[18]، إضافة إلى الجهل بالدين والتخلف بصفة عامة والقصور الثقافي والأمية السياسية، فلما كان المسلمون علماء دينهم صاروا علماء الكون كله، فأصيبوا بمرض الجهل بدينهم، فانهزموا من الوجود[19]، كان ذلك أحد أسباب التطرف، ثم الوجود الغربي في المنطقة، ودوره في بذر الفتنة وصناعة إسلام مصلحي يناسب الذائقة الغربية، فشكلت الإدارة الأمريكية عملية توثيق ناجحة بين الإسلام والتطرف، فجاء «الإسلام الرّاديكالي» مُتمماً للرّغبات الأمريكية؛ ومحققاً لمشروعها السياسي والاقتصادي والثقافي كـــ «غزو فكري»[20]، وتعزز ذلك في دور الصهيونية في ربط الإسلام بالتطرف والإرهاب، وظاهرة الإسلاموفوبيا أبرز دليل على ذلك في التشهير بالعرب والمسلمين وتشويه صورة الإسلام وكل من تبنى تلك الطروحات هم يهود صهاينة (حصراً) أو ما يسمون بالمحافظين الجُدد صامويل هنتنغتون، وبرنارد لويس، وغيرهما، وللتطرف صلة وثيقة بفشل الحداثة، فالحداثة الفعلية هي قاطعة طريق الإرهاب، ولما أصبح العالم اليوم يعيش حداثة رثة أو حداثة مزورة صارت الحداثة الرثة متسبّبة في بروز التطرف كردة فعل عليها، وبالنتيجة لن تقوى على تحجيم دور العنف بقدر ما تزيد فاعليته بشكل أوفر، ومن ثم جاء تعميم ثقافة العولمة الغربية الشيئية ذي الأثر الفاعل والنشط في ترقية التطرّف، فالعولمة عممت القتل والإرهاب وصدّرته وجعلته متاحاً للجميع، فكان حظ العرب والمسلمين أوفر بذلك التعميم نتيجة للجهل الديني والسياسي الذي يعيشون في كنفه، وأعطى بروز ظاهرة الإسلام السياسي ومشتقاتها من إسلام

17- القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، كتاب الأمة، قطر، ط1، 1401هـــ، ص60.

18- فافيلوف، ألكسندر، الإسلاموية في السياسة العالمية المعاصرة، ترجمة طاهر محيي الدين جبر، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص52.

19- عبده، محمد، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، القاهرة، ط1، 1988م، ص180.

20- كصاي، حسام، الإسلام الرّاديكالي بين الأصولية والحداثة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2016م، ص172.

السلطة، ووعاظ السلاطين، والحنين الغامر إلى الأصولية الإسلامية الراديكالية القديمة التي أسّست التعصب والعنف في تاريخنا؛ أي إنّ الإسلام السياسي دعا إلى العودة إلى عقيدة فقهاء السلاطين[21]، ورافق ذلك بروز الميل الشديد إلى لغة العنف والتهديد والوعيد لعدم رُقيّ الإسلام السياسي إلى ثقافة العفو والتسامح.

فيما أدت التحوّلات الاستراتيجية بين عامي (1989م) و(1992م) من انسحاب السوفييت من أفغانستان، والحملة الأمريكية الفاشلة على الصومال، وعسكرة الجيوش الأمريكية في الشرق الأوسط بالكامل دوراً في صناعة التطرف، وأعطت معنى أن الرّاديكالية هي نتيجة عولمة الإسلام والتوسع الموازي للقوة الأمريكية[22]، اتضح ذلك في بروز «داعش» التي أعطت زخماً قوياً لبروز التطرف وربطه بالإسلام من خلال تبني القتل والعنف خطاباً دينياً موجهاً إلى الآخر (المحلي والأجنبي)، كما ألزمت الآخر الحجة علينا بأننا مصدر للعنف والخراب، وسبب لبروز التطرف، واستكمل ذلك بروز الأفكار الرّاديكالية والأصولية البروتستانتية من جديد، وهي تبشر بعقيدة تنفي الإسلام، وتحاول أن تقوض دوره (وخصوصاً في الولايات المتحدة الذين يسمون بالمحافظين الجُدد)؛ وهذا لا يتم إلا من خلال «أرهبة الإسلام»، أو «أسلمة الإرهاب»، وذلك ما اتضح في أفكار شتراوس، التي تعتقد أساساً أن الأمة الأمريكية هي أمة صاحبة رسالة حق، ويجب أنْ تبلغها المجتمعات الأخرى، وأن الولايات المتحدة يجب أنْ تتبوأ مكانة متفرّدة تعكس صورة تفوّقها في السياسة الدولية العالمية، وتحقيق ذلك يقتضي قمع ومواجهة القوى المناهضة للسياسات الأمريكية في العالم، واعتماد مبدأ القوة المفرطة لكبح الميول العدائية لأمريكا[23].

لا يقف التطرف عند تلك الأسباب فحسب، فهناك أسباب أخرى وعديدة، منها أسباب نفسية أو أمراض نفسية، وأخرى ثقافية متّسمة بعموم الجهل، وأسباب متعلقة بالحركات الإسلامية نفسها التي ساعدت على دفع التطرّف إلى الواجهة ليتصدر المشهد السياسي العربي بحرفية.

هذه جملة الأسباب مجتمعة دون تجاوز القول في أنّ كلّ مدرسة فكرية تفسر هذه الظاهرة على طريقتها الخاصة، ومن منظارها الإيديولوجي، ومن زاويتها، فالمدرسة النفسيّة تعتقد أن أسباب التطرف أسباب نفسية محضة، والمدرسة الاجتماعية تعتقد أن تأثير المجتمع وأوضاع تقاليده هي السبب (دوركايم)، بينما المدرسة الاقتصادية تعتقد أنّ الأسباب معاشية (فوكاياما).

21- صالح، هاشم، مُعضلة الأصولية الإسلامية، الطليعة، بيروت، ط2، 2008م، ص83.

22- روا، أوليفيه، عَولمة الإسلام، ترجمة لارا معلوف، دار الساقي، بيروت، ط1، 2003م، ص195.

23- Leo Strauss, Liberalism Ancient Modern, (Chicago: University of Checago,1995), p.p. 65_70.

فيما يختصر القرضاوي كلّ تلك الأسباب بالقول: إنّ من الأسباب ما هو ديني، وما هو سياسي، وما هو اجتماعي، وما هو اقتصادي، وما هو نفسي، وما هو فكري، وما هو خليط من كل هذا[24]، وهذا ما هو واقع فعلاً اليوم، فالتطرف لا يمكن حصره في ثمة مسببات أو تحديده في نطاقها الضيق.

المحور الثالث: كيف نشأت ثقافة التعصب في البيئات العربية:

مبدئياً نتفق على أن التعصب يختلف عن التطرف، وأنهما في اختلاف زمني وتراتبية تاريخية، أقل ما يمكن قوله أنّ التطرف وليد التعصب ولاحق له، أو أن التعصب سابق على التطرف، وهذا ضروري ومهم من أجل الوقوف على أرض صلدة من أجل تشريح حالة الأمة العربية الإسلامية وخطابها المزري وصولاً إلى التعريف بالتسامح الديني الذي جاء به الإسلام.

فيما أدّت ثقافة التعصب الناشئة في البيئات العربية المعاصرة دوراً مهماً في تغيير مسار الدين وأشكلة الخطاب العام المتوالد من رحم إرهاصاته وتحولاته وتقادمه الزمني والتتابع السيروري للأحداث، ومن ثمَّ أفرزت تلك التحولات سلوكيات سلبية على صعيد الداخل والخارج، النخبة والعامة، الحكام والمحكومين، ما يربك حالة الأمة، ويضعها في موقف لا تُحسد عليه، فكان للتعصب دور ريادي في اللعب على أوتار السلوك الفردي والجماعي للمجموعات البشرية المتبنية لذلك الخطاب أو التوجه.

مفهوم التعصب:

يرجع التعصب إلى كونه مفهوماً مُتأصّلاً من القرن الثامن عشر (عصر الحروب الدينية الصليبية المقدسة) جرى وضعه للتنديد بتزمت ديني (زيلوتية) نسبة إلى زيلوت اليهودي المُتعصب (Zelotisme)[25]، وهذا يعني أن المفهوم وليد عقد المسيحية، وهو تغريب أكثر مما هو تعريب؛ أي إنه مفهوم أقرب إلى البيئات الغربية منه إلى البيئات العربية من حيث الأصل أو النشأة[26]. ومن ثَمَّ هو مفهوم غريب أولاً، ونتاج للتدّين الشعبي (ابن الحداثة الغربية ثانياً، فكانت نتيجة هذا الانتقال بين محيطي المقدس والمدنس أن أصبح النظام السياسي الإسلامي (الافتراضي) قريناً للتعصّب الديني، متجاوزاً عمراً وتاريخاً طويلاً من التسامح

24- القرضاوي، يوسف، مرجع سابق، ص61.

25- هانيال، أندريه، سيوكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، ميكلوس موانار، جيرار دي بوميح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1990م، ص8.

26- كصاي، حسام، إشكالية الطائفية في الفكر العربي المعاصر: آليات الخروج الأمن للعرب من نفق التطرف، دار صفحات للنشر، دمشق، ط1، 2016م، ص40.

الديني[27]، ومن ثم الإسلامُ تسامح وعفو أما السلوك الجمعي لراكبي موجة الدين هم وحدهم المتعصّبون جهلاً بالدين أو مغالاةً.

ونتيجة لذلك كله يمكن القول: إنّ التعصب نتاج لفعل التدّين الشعبي الموجّه من الإسلام السياسي. بدأ نهاية القرن الفائت التي عدّت حقبة «التهديد الإسلامي» للغرب[28]. فقد عُدّ تهديداً لأمن واستقرار أوربا والعالم الغربي بمجمله. وبذلك بات الإسلام السياسي المعاصر يحقق مكاسب للغرب الاستعماري على وتيرتين:

- **الأولى:** جعله مفهوماً مقارباً لمفهوم الإسلام المبكر ومطابقاً له.

- **الثانية:** ربط الإسلام بالعنف والتعصب والإرهاب، وهو ما سُمّي بـــ «الإسلام الإرهابي».

وكأن التعصب هنا ناجم عن تحالف الداخل والخارج، الجهل والتبعية؛ إذ أضفى التعصب على آراء المذاهب صفة القداسة، ومن ثم أصبح كل رأي أو سلوك أو فتوى موازياً للنص القرآني من حيث القداسة والتأليه، وغير قابل للنقد أو الرد، وخلاف ذلك سيكون القتل أو الخروج عن الملة هو النتيجة العقابية لهذا السلوك بحكم الضرورة.

أضواء على ثقافة التعصب:

ثمة ملاحظات استدعت الحضور القوي لثقافة التعصب في البيئات العربية والإسلامية المعاصرة بهذا الوزن والصياغة المطروحة، يمكن تبيّنها من خلال هذا الاسترسال التراتبي الذي حاولنا من خلاله تسليط الضوء على حقيقة التعصب وخفاياها، بوصفه مدخلاً لمعالجتها من جانب، ولتأكيد سماحة الإسلام وهديه من جانب آخر:

أولاً: هوية مفهوم التعصب:

من أبرز أسباب التعصب القائمون على إنتاج هذا المفهوم وصياغته، حيث يرجع جذر مصطلح التعصب إلى كونه مفهوماً متأصّلاً من القرن الثامن عشر (عصر الحروب الدينية الصليبية المقدسة[29]، أي إنه وليد

27- صافي، لؤي، «الدولة الإسلامية بين الإطلاق المبدئي والتقييد النموذجي»، في: حماد، مجدي (وآخرون)، الحركات الإسلامية والديمقراطية: دراسات في الفكر والممارسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط2، 2001م، ص113.

28- روا، أوليفيه، تجربة الإسلام السياسي، ترجمة نصير مروة، دار الساقي، بيروت، ط2، 1996م، ص11.

29- هانيال، أندريه، سيوكولوجية التعصب، ص8.

عقد المسيحية من حيث الأصل أو النشأة والسلوك والبدء في تبنيه واقعاً عملياً، ونقله من ميدان الفكر إلى الممارسة وتجريب صلاحيته بادئ الأمر.

ثانياً: الأصوليات الدينية:

يبدو أنّ الأصولية الدينية تعطي معنى المبالغة في التدين، والإيحاء يصور التعصب وأساليب التفكير الساذجة القائمة على الاعتقاد بتعليم ديني محدد المعالم، أو بتقليد ديني متمسك بتفسيرات معينة للنصوص المقدسة[30]، وهذا لا يُعين أصولية دون غيرها، أصل الأصوليات هو الغرب، والبروتستانتية تحديداً، ومن ثم هي الأم العفيفة التي أنجبت الأصوليات الأخرى من بينها الإسلاموية بصيغتها الراديكالية، فلا يمكن اعتبار الأصولية بعنفها نتاجاً للإسلام وإنما للغرب وجهل المسلمين بأمور دينهم على حدٍّ سواء.

ثالثاً: الإسلام السياسي:

شكل الإسلام السياسي المطروح اليوم بصيغته الحالية «حزباً سياسياً»، ما حاول بلورة إجماع طائفي ضيق يحشو عقول الجماعات الإسلامية الراديكالية وجوارحهم بفكر التعصب والتطرّف وحشوه بثقافة الثأر والانتقام من أجل تحقيق أغراض دنيوية يمكن الوصول إليها دون التضحية بالمُقدّس (الإسلام الحقيقي)[31]، وهي شهادة معلنة تؤكد خلو الإسلام من مرض التطرف والتعصب، فممارسات التعصب هي مخاض السياسة في الدين وليس الدين في حد ذاته، ومن ثم وقف الإسلام السياسي عائقاً أمام مبادئ التسامح والحداثة مع طغيان ثقافة الإقصاء والعزل والتهميش مصحوبة بالتحريم والتجريم[32].

رابعاً: الجهل بالدين والثقافة القومية:

لا نلقي باللائمة على الغرب وحده، ولا يعني ذلك أن العرب والمسلمين لديهم جهاز مناعي من عدوى التعصب؛ بل هم اليوم بيئة صالحة للعنف والتعصب، وقابلون لتلقي كل الأفكار أو إنتاجها محلياً، فالجهل والخرافة ينبعان من الداخل المحلي، والانحطاط ناجم عن الجمود الفكري، ومن ثم كان التعصب ثقافة مجتمع.

30- بلخضر، كريمة، الأصولية السياسية المعاصرة من خلال الرؤية الصهيونية: دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر بن يوسف بن خده، الجزائر، (د.ت).

31- كصاي، حسام، الإسلام الراديكالي، مرجع سابق، ص44.

32- شعبان، عبد الحسين، فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي: الثقافة والدولة، دار أراس للنشر، أربيل، ط2، 2011م، ص93.

خامساً: غياب العدالة الاجتماعية:

لا تنهض أمة وتتقدم دون عامل العدالة؛ وهو ما أكدهُ أفلاطون وأرسطو، وجاء الإسلام مؤكداً عنصر العدالة، وهناك شاهدان في الإسلام عبرا عن حاجة العدالة الاجتماعية هما حكم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي عزز مقومات دولة الإسلام في عصره، وحالة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) الذي عُدّ حالة استثناء في حكم الأمويين نتيجة عدله، وعكس العدالة حالة التعصب والتخلف والعنف.

ومن ثم نجد أن التعصب المذهبي هو وضع وحالة يخلّان بمنظومة الدين، ويعرقلان نهضة الأمة العربية والإسلامية، لما يخلّفانه من آثار سلبية مدمرة على المجتمعات[33]: تمزُّق المجتمع الإسلامي، وتفرّق كلمته، وتعطيل العقل في النظر إلى المستقبل، وتبدد الطاقات في شتى المجالات، والتخلف والضعف، واستبداد الولاة والحكام، واحتلال كثير من الأقطار العربية، وفرض عادات وقوانين باعدت بين الأمة وأصالتها.

أما بالرجوع إلى الجذور الحقيقيّة للتعصب، فيمكن القول: إنّ الإسلام أكثر الأديان تسامحاً، وأقلها ممارسة للعنف، وإن الإسلام قد يكون أقل الأديان ممارسة للعنف، وهذا ما أوضحه الإمام محمد عبده في مؤلف (**الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**)[34]، ويؤكد ذلك في موضع آخر بالقول: إن تعصب بعض رجال الدين هو الذي أضر بالدين[35] دون أن يقومه أو يقدمهُ؛ أي بتعبير أكثر وضوحاً، إنّ جذور التعصب، مثل التطرف، هي أسباب داخلية وخارجية غالباً ما تنجم عن الجهل والأمية والتخلف، والبلدان النامية غالباً ما تنال النصيب الأوفر من العنف والتعصب، نتيجة لتدني المستوى التعليمي وضعف الإنفاق على الخدمات التعليمية والتعبوية، وانتشار الأنظمة القمعية والتسلطية وسيادة المصالح الشخصية والحزبية على المصالح العامة وغياب العدالة الاجتماعية.

وبالنتيجة، يمكن القول: إن التعصب والانغلاق قطعاً لا يصنعان أصالة؛ بقدر ما صنعا وبلورا واقعاً ثقافياً تمور فيه التناقضات بكل أشكالها وأطيافها، وتقوض الأنساق الثقافية المحملة بالمضامين الحضارية الأصيلة[36]، ولهذا وعى الإسلام مُنذ البدء خطورة التعصب فقال صلى الله عليه وسلم: «دعوها إنها نتنة»، وحذر منها، فجاء الإسلام بالعرب ليس كعرق مُستعلٍ، وإنما كجماعات تخدم هذا الدين ولا تميز بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

33- رمضان حسن، فتحي، مرجع سابق، ص143.

34- دار الحداثة، القاهرة، ط3، 1988م.

35- عبده، محمد، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم محمد عمارة، الشروق، القاهرة، ط1، 1993م، ص253.

36- محفوظ، محمد، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المُستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999م، ص20.

المحور الرابع: دور التكفير والتطرف في صناعة خطاب ديني معاصر:

دور الحركات الإسلامية:

تحاول معظم الحركات الإسلامية المعاصرة طرح نموذج إسلامي وشكل للنظام الإسلامي تصفه بـــ «**الدولة الإسلامية**»، وترفض أيّ نموذج أو آلية أخرى غير ما تطرحه، وهو ما أوقعها في صراع مرير أوصلها إلى حدّ التكفير[37] في سياق الحصول على موطئ قدم في هرم السلطة أو التمتع بنفوذها، عبر توظيفات الدين المتباينة، وهذا لا يمكن أن يتم دون توافر شرط موضوعي هو حضور أو استحضار خطاب ديني معاصر يعبر عن رغبة تلك الجماعة.

وممّا رافق ذلك الخطاب المغالاة والتشدد مسايرة للفكرة الأساس التي تقدمها الحركات الإسلامية في طرح أنموذج للدولة بطريقتها الفاشية وشكل تقليدي معين للحكم، مع رفض شرائح واسعة من بينها النظم الحاكمة بكل ما تمتلكه من هيمنة وقوة ونفوذ مع أسلوب التكفير للمجتمعات، والعمل على تغيير أشكال الحكم من جذرها مثل ما ذهب إليه سيد قُطب[38]، ومن ثم تلجأ تلك الجماعات الدينية إلى خيارات العنف وتكفير الآخر ما يوفر أرضية مناسبة لنمو العنف وانتشار خطاب عنيف ومتشدّد. فلم يعد الخطاب الديني حينذاك يحتوي على مفاهيم أكثر من الجهاد، والقتال، وآيات السيف، والكفر، والردة، والخروج من الملة وغيرها...

ناهيك عن أنّ هناك من يرى أنّ التجديد في الإسلام هو في حدّ ذاته كفر وارتداد ومروق من الدين، وأن مجرد التفكير في التجديد هو خروج على الثوابت وهدم لها[39]، ما يُبرر محاربة كلّ تيارات التجديد الإسلامي.

وطالما أن العنف في الشرق الأوسط استنهضهُ الاحتلال والاستغلال الأجنبيّان كالإنجليز في مصر، والفرنسيّين في الجزائر، والصهاينة في فلسطين، والأماركة في العراق ومنطقة الخليج العربي[40]، فإنّ الأمر ينعكس في بلورة خطاب ديني متشنج ومتحفّز ضد الخارج، علاوة على الداخل باعتباره متآمراً مع الخارج.

37- العقالي، محمد الدمرداش، الإسلام السياسي: من عام الجماعة إلى حُكم الجماعة، دار سما للنشر، القاهرة، ط1، 2014م، ص13.

38- راجع: قطب، سيّد، معالم في الطريق، الشروق، القاهرة، ط6، 1979م، طبعات أخرى متعددة.

39- مختار، محمد، مرجع سابق، ص13.

40- الحديدي، هشام، الإرهاب بذوره وثبوره: زمانه ومكانه وشخوصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014م، ص43.

التكفير بين الإسلام والخطاب الديني:

من ثوابت الإسلام ديناً الإقرار بأن التكفير ليس من مبادئه ولا من أدبيّاته، ولا يوجد نص قرآني قطعي الدلالة يُشير صراحة أو ضمناً إلى العنف والتكفير؛ بل إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى حرّيّة الرأي والتسامح والعفو ونبذ الإكراه، وأبرز تلك الدلالات القاعدة القرآنية: {لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ} [البَقَرَة: 256]، وقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافِرون: 6]؛ أي إنّ التكفير أمر مرفوض في الإسلام، والإسلام يقول إنّ من نطق الشهادتين لا سبيل إلى تكفيره بحال من الأحوال؛ لأن التكفير سلطة إلهية بحتة مرتبطة بعمل القلب الذي لا يطلع عليه إلا الله «عز وجل»؛ بل إنّ هذه المقولة توشك أنْ تكون إنكاراً لمعلومٍ من الدين بالضرورة[41]، لكن كيف يمكننا إقناع أولئك الناس بضرورة شجب وتجريم التكفير، وهم ذاتهم لا يجدون الغضاضة في قتل من يسوّغ لهم فكرة الرجوع إلى رحمة الإسلام وإنسانيّته إذا ما وجدوا تلك الفرصة السانحة، إنّ السبيل إلى ذلك لا يتم إلا بالقوة الناعمة دون التعويل عليها وحدها.

لكن يمكن أن يكون الدور مهمّاً لتلك القوى بعد عجز القوى الصلبة عن ردّ التطرف إنْ لم نقل زادت من حدتهِ وضراوتهِ، فيما تصل درجاته إلى حدّ تكفير الآخر وتجريمه وردّته، بدواعٍ سياسية لا صله لها بالدين (أيّ دين سماويّ من بعيد أو من قريب) والإسلام على قمة هذه الأديان[42]، حيث أبدى الإسلام السياسي (على الرغم من المرونة الخطابية المُعلنة من طرف الناطقين باسمه) ميلاً متزايداً إلى استخدام الدين في الصراع السياسي والانتفاع منه وسيلةً وليس غاية.

هكذا بدأت تتشكل صور جديدة من التفاعل بين الدين والسياسة والفكر[43]، وهو ما أنتج ثقافة التطرّف ورفض الآخر وتدعيم فكرة التكفير، ما يفرض واقعاً جديداً لفكرة تجديد الخطاب الديني. والمسوغ لها هو التأخر والتخلف اللذان يعيشهما المسلمون في أوطانهم[44]، إنّها حالة ولّدها غياب أنماط التمدن والتحوّل الديمقراطي، الذي كبح جماحه الاستبداد الديني والسياسي. لهذا كان غياب الديمقراطية في عالم العرب والإسلام منتجاً للعنف والتكفير والتطرف[45].

41- الصاوي، صلاح، التطرف والرأي الآخر، دار الآفاق الدولية للإعلام، القاهرة، ط1، 1993م، ص71.

42- كصاي، حسام، الإسلام والديمقراطية تشوهات الأصل والصورة، دار رؤى، تونس، ط1، 2014م، ص54.

43- عبد اللطيف، كمال، «مدخل إلى قراءة الأبعاد الثقافية للثورات العربية»، في: الانفجار العربي الكبير في الأبعاد الثقافية والسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2012م، ص56.

44- الشريف، محمد بن شاكر، مرجع سابق، ص42.

45- كصاي، حسام، الإسلام والديمقراطية، مرجع سابق، ص187.

ويعتقد نصر حامد أبو زيد أنّ التكفير سمة أساسية من سمات الخطاب الديني المعاصر، لا تفارق بُنية هذا الخطاب[46]. ويدعم رأيهُ الكثيرون، حيث بات التكفير القيمة أو المنبر الذي يُنظر من خلاله إلى الإسلام. وهذه هي «فعلة» الإسلاميين المُتشددين المُسيئين للإسلام وقيمه الروحية، بما يشكله الكفر (أو التكفير) من مفهوم أخلاقيّ استأثر به الخطاب الديني[47].

وبهذا أصبح الخطاب الديني المعاصر يعتمد أسلوب التضليل والتحريف والتزّييف تساوقاً مع إيديولوجياته ورغباته وما يجنح إليه من سياسات، فهو يحاول دوماً «التشويش الإيديولوجي»[48] والخلط بين الدين والخطاب الديني، وبين الدين والفكر الديني، وبين الإسلام الرسولي والإسلام السياسي، ووضع الجمهور في خانة التشكيك والتوهيم بشكل تراوحي وديناميكي متساوق ومتراتب باستمرار.

ومن هنا كان من الضروري السعي إلى تصحيح مسار الخطاب الديني المعاصر وتخليصه ممّا صاغته الجماعات الإسلامية، تيّاراتٍ دينيّة، وحركاتٍ، وأحزاباً، ومنظماتٍ. وذلك بنقده وردّه وتجديده من أجل إصلاح حال الأمة **أولاً**، ومن أجل رفع اللغط والخلل الذي أصاب الدين وجمهوره بسبب التطرّف **ثانياً**، وهذا لا يمكن أنْ يتم دون ثورة في تجديد الفكر الديني والخطاب الديني المعاصر.

المحور الخامس: معالجة الخطاب الديني بثقافة التسامح والواقع العملي:

التجديد أولاً:

ورد مفهوم التجديد في اللغة من كلمة «جدد»، فيقال جدّ الشي: أي صار جديداً، وقد استعمل المفهوم لمعنى الإعادة، فيما استخدم لفظ «الجديد» في القرآن الكريم في الحديث عن البعث بعد الموت، وإعادة الناس أحياء وردهم إلى ما كانوا عليه قبل الموت[49] بقوله تعالى: {أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [السَّجدَة: 10]، وقد جاء في القرآن في معرض الرد على منكري البعث. وهو مفهوم على تقارب من مفهوم التجديد، وهذه أقرب صورةٍ له كما وردت في آيات القرآن الكريم ونصوصه.

والتجديد لا يتلاعب بالنص وإنما بتأويله فحسب؛ أي إن التجديد «هو ما يستهدف المتغيرات في الدين، ولا يمس الثوابت أو يتلاعب بها بما هي نصوص قطعية الدلالة وثابتة في النص ذاته[50]؛ أي إنّ التجديد هنا

46- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني المعاصر، الشروق للنشر، القاهرة، ط2، 1994م، ص24.

47- حوراني، راتب، حوارات التدخل الديني والسياسي، دار الفارابي للنشر، بيروت، ط1، 2009م، ص36.

48- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني المعاصر، مرجع سابق، ص39.

49- الشريف، محمد بن شاكر، مرجع سابق، ص11.

50- كصاي، حسام، مرجع سابق، ص25.

يعني العودة إلى الأصول والمنابع عودة كاملة وصافية ودعوة للثبات على الحق[51]، وليس إزالة تلك الأصول والقبول بالمتغيرات والثانويات التي تنافي ثوابت الدين.

ومن هنا لا نجد الغضاضة في القول: إن التجديد بات ضرورة قصوى لأمر الفكر الديني والخطاب الديني، شرط أن يكون تجديداً بشروطه وأصوله الواردة في الكتاب والسنة من جانب، والمُراعية للظروف والرهانات والنوازل بعين العصر والمصلحة العامة للبلاد والعباد من جانبٍ آخر، والتأكيد على فقه التسامح الديني في الإسلام لرد طروحات التطرف ثالثاً، وهذا لا يمكن أن يتم حسمه دون معالجة حقيقية وشاملة وإصلاح تراتبي يحافظ على البنى القائمة بالتدرج دون القفز على الحقائق، أو تجاوز الواقع ورهاناته.

التسامح في الثقافة الإسلامية:

لقد جاء الإسلام في مجمله برسالة التسامح والإخاء ونبذ التعصب بكل أشكاله، وأكد العفو والتسامح والمحبة حتى في أوج القوة والعظمة فكان مبدأ (العفو عند المقدرة) من قيم وثوابت الإسلام، الذي كان يحرص على معاملة الضعيف، والأسير، والغريب، والجريح، والأعزل، والكَهْل، والمُقعد، ويُحرم القتال بأي صورة والإرهاب بأي أشكاله والحرب بأي صنوفها ما خلا الدفاع عن النفس ورد الأذى وبشروط، وهذا كله مرتبط بعضه ببعض نتاجاً لحالة الوسطية التي تمتع بها الإسلام ديناً.

ويؤكد التسامح الديني قضية التعايش السلمي بين الأديان وحق المواطنة عبوراً لمفهوم الذمي، وتأكيد التعددية الدينية حقاً عاماً، بمعنى ممارسة حرية الشعائر الدينية والتخلي عن التعصب الديني والتمييز العنصري وفقاً لأدب الحوار والتخاطب وعدم التعصب للأفكار الشخصية والحقّ في الإبداع والاجتهاد، وقد أسهم الدين الإسلامي في أن يؤمن المسلم بكل ما أنزل الله تعالى من كتب، وما آتى رسله من صحف[52]، ومن ثم ليس الإسلامُ الأصوليةَ التي تعني العودة إلى الماضي والانتساب إليه وانتهاج الفكر المحافظ وعدم التسامح والانغلاق والتحجر المذهبي والتصلب والعناد والعُنْف[53]؛ بل هو العودة إلى الأصول والمنابع الأولى للإسلام مع مراعاة الواقع والظروف والنوازل المستجدة.

والتسامح الحقيقي المرجو والمَحْمُود هو ما جاء به الإسلام، ودعا إليه؛ حيث يقول الباري (عز وجل): {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعَام: 108]، ومواضع كثيرة وردت في القرآن تدلل على سماحة القيم الروحية للإسلام، والدعوة لنبذ العُنْف والإرهاب، وإن الإسلام ديناً وقف إلى

51- الشريف، محمد بن شاكر، مرجع سابق، ص11.

52- يوسف، أيمن (وآخرون)، الدين والسياسة والديمقراطية، تحرير رفيق المصري، مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ط1، 2007م، ص87.

53- سليم، أحمد عزت، «الأساطير الأصولية بين مبررات العنف والتكفير»، مجلة الثقافة الجديدة، القاهرة، العدد 291، 2014م، ص16.

جانب الوطنية بوصفها انتماء للمواطن، وندد بالطائفية نزوعاً أو حلاً لدى الجماعات والحركات الإسلامية الرّاديكالية، مع عَدِّها جزءاً من الرؤية الكنسية لعلاقة الدين بالسياسة الدامجة لها بطريقة أكثر عشوائية وتجرد من منطق الواقع.

ذلك من منطلق أن الجوهر الحقيقي للدين، بالإضافة إلى العبادات، هو الدعوة إلى الفضيلة والتحلي بالأخلاق الحميدة، وحث الناس على التراحم والتسامح والعدل بينهم والاتصاف بالصدق والأمانة[54]، فالتسامح ديدن الإسلام، والأخلاق بما هي العادة السجية والطبع والمروءة[55]، هي من الدين وليس من السياسة، والإسلام أكد على الأخلاق، وأنها من صلب السياسة الإسلامية[56]. وهذا ما لم يُؤخذ به من جانب الإسلاميين الذين عبّروا عن «التسامح» في فكرهم تحت خيارات الحديد والنار والعنف والقتل.

ومن ثم فمسؤولية تحرير الإسلام من عُقدة التطرف ملقاة بالنسبة الأكبر علينا نحن العرب والمسلمين قبل الخصوم، فنحن لا نأمل من العدو ضماداً للجرح، أو باقات وردٍ محملة على ظهر طائرات «الشينوك». ما علينا هو مزيد من مدنية الإسلام والتحول نحو الديمقراطيّة، لأن الإسلام لا يساوم على الديمقراطية بل **هو دين ديمقراطي** يدعو إلى التسّامح والإخاء والألفة والرحمة[57].

صور معالجة التطرف بالتسامح الديني:

يحتاج نشر ثقافة التسامح إلى متسعٍ من الحرية ممثّلة في حقّ التعبير وحقّ الاختلاف دون خوف أو عقاب، وإلى مجتمع مدني يكون شريكاً فاعلاً مع الدولة التي لا بد لها من أن تعمل وفق سيادة القانون والمساواة بين المواطنين وتحقيق مبدأ العدالة دون معوق ديني أو بيئي[58].

من هذه المنطلقات نستطيع الحديث عن خطاب ديني معاصر (أو على الأقلّ ندعو إلى تبني فهم ذلك الخطاب) والوقوف على أرضية صلدة من أجل معالجة مواضع الخلل فيه، وذلك عبر تأكيد أنّ ثمّة عناصر مهمة لعلاج الخطاب الديني بالإسلام ثقافةً وحضارةً وقيماً روحية تسامحية، وأبرز تلك الخطوات أو العناصر:

54- هاشم، عمرو، التطرّف والإرهاب: دراسة اجتماعية نفسية سياسية، مدبولي، القاهرة، ط1، 1991م، ص17-18.

55- وهبة، مراد، مرجع سابق، ص36.

56- وليس من الإسلام السياسي، والفرق بين السياسة الإسلامية والإسلام السياسي كبير، الأولى عملية لتنظيم شؤون المسلمين بتحقيق الرفاهية للعباد والبلاد وفق الشريعة، والثاني (الإسلام السياسي) هو عملية الوثوب على السلطة من خلال توظيف الدين وجعله وسيلة لا غاية مثلما عند الأولى.

57- كصاي، حسام، الإسلام والديمقراطية، مرجع سابق، ص207.

58- شعبان، عبد الحسين، مرجع سابق، ص93.

- **أولاً: مصالحة النظم الحاكمة مع المعارضة** والاستماع لطروحاتها ومحاولة استقطابها؛ لأن خلاف ذلك سيعظم نفوذها من الداخل أولاً كملاذ، ويساعد الخارج على دعمها وتمويلها ذريعةً للتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية، ما يفسد رفاهية البلاد والعباد، ويعزز صدارة الأمم والشعوب العربية والإسلامية في قائمة التخلف.

- **ثانياً: طاولة مستديرة للحوار العلماني-الإسلامي**، فمن الضرورات المهمة تحقيق مشروع حواري بنيوي بين تياري العلمانية والإسلام السياسي (باعتبارهما واجهة التيارات السياسية العربية بشكل عام)، حيث يطرح كلّ طرف آراءه وتصوراته؛ لأن أصحاب الإسلام السياسي لايزالون مُصرّين على ممارسة الغموض الإبداعي في طروحاتهم[59]، والعلمانية هي الأخرى لا تزال تعاني من مشاكل نظريّة وعمليّة.

- **ثالثاً: اعتماد منهج الوسطية الإسلامية** التي جاء بها النص القرآني: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البَقَرَة: 143]، بما تعنيه الوسطية من كونها صنواً للعقل والحرية والإخاء بين الناس وإشاعة روح التسامح والفهم الذكي المستنير لحقوق الإنسان[60]، لتأكيد أن الإسلام بريء من سلوكيات العنف والتطرف ومد اليد البيضاء للتسامح، فالراديكالية مفهوم غربي، كنسي النشأة وليس عربيّاً كما يشاع الحديث عنه.

- **رابعاً: تأكيد مفهوم العدالة الاجتماعية**: فتوافر هذا المخزون الثقافي سوف يقلل من حدة التطرف والتعصب والميول العمياء للعنف، لما يتملكه من نفسية تساعد على بناء شخصية الفرد/المواطن بطريقة لائقة هذا من جانب، والعدالة أساساً، لدى بعض الفلاسفة، هي إصلاح لحال الدين، والعدالة هي مرتكز التسامح والتصالح والسلم والاستقرار والتعايش السلمي وخصوصاً في المجتمعات التي تمتاز بـــ «الموزاييك» التعددي كالمجتمعات العربية والإسلامية التي تتداخل فيها الأقليات الدينية والعرقية واللغوية والقبلية إلى أعماق الأغلبية السكانية إلى درجة يصعب فكّ ذلك التداخل بين تلك الأقوام أغلبية وأقلية واعتبار التنوع هو الاعتراف باحتمال خطأ الذات وقصور مشروعها، ولا ضير في التعلم من الآخر[61] بشروط.

ومن ثم، نحن نعتقد أنّ «ثورة تجديد ونقد الفكر الديني هي من سيحلّ إشكال وأزمة الدين، التي تحيق به، من خلال رفض كل البدائل والمعطيات من علمانية ودينية ثيوقراطية، وطرح فكرة دعا لها الإسلام بروح التسامح والوسطية ألا وهي «فكرة التمييز» التي نكفل بها حل أزمة الدين في الفكر والمجتمع العربي

59- يسين، السيد، أسئلة القرن الحادي والعشرين: الكونية والأصولية ما بعد الحداثة: الجزء الأول (نقد العقل التقليدي)، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1996م، ص256.

60- العلوي، سعيد بنسعيد، أدلجة الإسلام بين أهله وخصومه، تقديم محمود إسماعيل، دار رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2008م، ص279-280.

61- محفوظ، محمد، مرجع سابق، ص23.

الإسلامي المعاصر»[62]، وتأكيد اعتماد الإسلام، كتاباً وسنة، منطلقاتٍ لمعالجة الخطاب الديني المعاصر مع عدم تجاهل الواقع والمعطيات؛ لأن النص الديني أساساً جاء مراعياً للواقع لا متجاوزاً له.

الخلاصة:

نستطيع القول: إن الإسلام دين وسطي، وهذا التسامح نابع من الوسطية، والتسامح هو أصل الإسلام، لكن لا يعني ذلك أن التطرّف هو أصل الآخر (المسيحية أو اليهودية أو غيرها) مهما كانت هويته، فليس العكس صحيحاً بالتمام، فمبدأ التسامح ليس لصيقاً بتراث مجتمع؛ إنّه ممتد عبر العصور لا هو غربي ولا هو شرقي[63]. وقد أوصلنا حديثنا عن التسامح في الإسلام وعن حرية التدين، اللذين تضمّنهما ما يقارب مئة آية بيّنة، إلى هذه الخُلاصة وهذه الرؤية، سياقاً معرفياً «إبستمولوجياً»، ومن ثمّ ليس التسامح حكراً على الإسلام وحده، بل هو متاح للأديان كافةً ومعياره الإنسانية، والإنسانية هي الدين ولا شيء غير ذلك، ولا التطرف بريء من المسلمين، فنحن من ساعدنا على صناعته بتوظيف الدين من خلال الفتوى النابعة من مؤسسات دينية ذات وزن لا يُستهان بها. وليس الغرب وحده مسؤولاً عن ذلك العنف وربط الإسلام بالإرهاب؛ بل إنّ بعض المسلمين ساعدوا في صناعة تلك الصورة المشوهة وتأطيرها ببراويز الحجج الدامغة من خلال سلوكيات بعض الجماعات الراديكالية المتطرفة التي ترفض فكرة التسامح الديني، وتعوّل على مفهوم العنف المسلح.

بقي ألا نُنكر أنّ الغرب الأوربي قد تفوق في مجال التسامح «قانونياً» مقابل تراجع هذا المجال في الشرق الإسلامي، وتحقيقُ ثقافة التسامح والسمو والتصالح والعفو هو ما دفعنا إلى تحديد مسارات من أجل الوصول إلى مبتغى التسامح، ومنها تجديد الفكر والخطاب الدينيّين. والتجديد هو عملية إعادة النظر بالأمور المتغيرة ومراعاة المستجدات والنوازل من منطلق أن الإسلام نصاً جاء مراعياً للواقع لا متجاهلاً له أو عابراً للرهانات، وهذا هو دليل سماحة الإسلام ورحابتِهِ، وقابليته للاستجابة للمعطيات التي يفرضها الواقع.

62- كصاي، حسام، معضلة الظاهرة الإسلامية: التشكيل الطائفي للإسلام المعاصر، دار صفحات للنشر، دمشق، ط1، 2016م، ص26.

63- شعبان، عبد الحسين، مرجع سابق، ص94.

لائحة المصادر

أولاً: باللغة العربية:

- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني المعاصر، الشروق للنشر، القاهرة، ط2، 1994م.

- أبو المجد، أحمد كمال، مدخل إلى إصلاح الخطاب الديني المعاصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 2015م.

- بلخضر، كريمة، الأصولية السياسية المعاصرة من خلال الرؤية الصهيونية: دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر بن يوسف بن خده، الجزائر، (2005-2006م).

- الحديدي، هشام، الإرهاب بذوره وثبوره، زمانه ومكانه وشخوصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014م.

- حسن، فتحي رمضان، تجديد الفكر الديني بين النظرية والتطبيق، وزارة الأوقاف، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية، ط1.

- حوراني، راتب، حوارات التدخل الديني والسياسي، دار الفارابي للنشر، بيروت، ط1، 2009م.

- الربيعو، تركي علي، الحركات الإسلامية من منظور الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006م.

- روا، أوليفيه:

- تجربة الإسلام السياسي، ترجمة نصير مروة، دار الساقي، بيروت، ط2، 1996م.

- الجهل المُقدّس: زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشقر، دار الساقي، بيروت، ط1، 2012م.

- عَولمة الإسلام، ترجمة لارا معلوف، دار الساقي، بيروت، ط1، 2003م.

- سليم، أحمد عزت، «الأساطير الأصولية بين مبررات العنف والتكفير»، مجلة الثقافة الجديدة، القاهرة، العدد 291، 2014م.

- الشريف، محمد بن شاكر، تجديد الخطاب الديني: بين التأصيل والتحريف، مكتبة الملك فهد، الرياض، ط1، 2004م.

- شعبان، عبد الحسين، فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي: الثقافة والدولة، دار أراس، أربيل، ط2، 2011م.

- صافي، لؤي، «الدولة الإسلامية بين الإطلاق المبدئي والتقييد النموذجي»، في: حماد، مجدي (وآخرون)، الحركات الإسلامية والديمقراطية: دراسات في الفكر والممارسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2001م.

- صالح، هاشم، مُعضلة الأصولية الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2008م.

- الصاوي، صلاح، التطرف والرأي الآخر، دار الآفاق الدولية للإعلام، القاهرة، ط1، 1993م.

- عبد اللطيف، كمال، «مدخل إلى قراءة الأبعاد الثقافية للثورات العربية»، في: الانفجار العربي الكبير في الأبعاد الثقافية والسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2012م.

- عبده، محمد:

- الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم محمد عمارة، الشروق، القاهرة، ط1، 1993م.

- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، القاهرة، ط1، 1988م.

- العشماوي، محمد سعيد، أصول الشريعة، دار الانتشار العربي، بيروت، ط5، 2004م.

- العقالي، محمد الدمرداش، الإسلام السياسي: من عام الجماعة إلى حُكم الجماعة، دار سما للنشر، القاهرة، ط1، 2014م.

- العلوي، سعيد بنسعيد، أدلجة الإسلام بين أهله وخصومه، تقديم محمود إسماعيل، دار رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2008م.

- فافيلوف، ألكسندر، الإسلاموية في السياسة العالمية المعاصرة، ترجمة طاهر محيي الدين جبر، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م.

- القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، كتاب الأمة، قطر، ط1، 1401هـ.

- قُطب، سيد، معالم في الطريق، الشروق، القاهرة، ط6، 1979م.

- كصاي، حسام:

- الإسلام الرّاديكالي بين الأصولية والحداثة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2016م.

- الإسلام والديمقراطية تشوهات الأصل والصورة، دار رؤى، تونس، ط1، 2014م.

- إشكالية الطائفية في الفكر العربي المعاصر: آليات الخروج الآمن للعرب من نفق التطرف، دار صفحات للنشر، دمشق، ط1، 2016م.

- معضلة الظاهرة الإسلامية: التشكيل الطائفي للإسلام المعاصر، دار صفحات للنشر، دمشق، ط1، 2016م.

- مبروك، علي، في لاهوت الاستبداد الديني والفريضة الغائبة في خطاب التجديد الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2014م.

- مبروك، محمد مختار جمعة، نحو تجديد الفكر الديني: مقالات في الدين والحياة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 2015م.

- محفوظ، محمد، الفكر الإسّلامي المعاصر ورِهانات المُستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999م.

- النابلسي، شاكر، تهافت الأصولية نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المعاش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2009م.

- نصار، عصمت، «فلسفة العنف: اضطراب النسق الجامع بين الشر والخير»، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد 291، السنة 2014م.

- السفير هاشم، عمرو، التطرّف والإرهاب: دراسة اجتماعية نفسية سياسية، مدبولي، القاهرة، ط1، 1991م.

- هانيال، أندريه، سيوكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، ميكلوس موانار، جيرار دي بوميح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1990م.

- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2016م.

- يسين، السيد، أسئلة القرن الحادي والعشرين: الكونية والأصولية ما بعد الحداثة، الجزء الأول (نقد العقل التقليدي)، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1996م.

- يوسف، أيمن (وآخرون)، الدين والسياسة والديمقراطية، تحرير رفيق المصري، مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ط1، 2007م.

ثانياً: باللغات الأجنبية:

- Sandra J. Ball - Rokeach, «The Legitimation of Violence», in: James F. short Jr.

- The Shorter Oxford English Dictionary, Oxford: Claredon Press, 1955.

- Leo Strauss, Liberalism Ancient Modern, Chicago, University of Checago, 1995.

- Marvin E. Wolfgang, Collective Violence, eds New york, Aldine, 1977.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020